الشعر التعليمي

(بداياته، تطــوره، سماته)

الدكتور خالد الحلبوني*

الملخص

تُعد المنظومات التعليمية، أو ما أُطلق عليه اسم «الشعر التعليمي» من الظواهر الجديدة في الشعر العربي في العصر العباسي، دفع إليها نمو الثقافة العربية؛ بتأثير الثقافات الأجنبية الناتج عن الاحتكاك بالحضارات الأخرى، وترجمة علومها وآدابها. وكانت غايتها الأولى: نشر العلوم والفنون بين الناس، وتسهيل حفظ المتون العلمية على الطلاب.

وقد اتسعت هذه الظاهرة حتى صارت أمراً راسخاً ثابتاً في العصور المتأخرة، ووصلت إلى كل العلوم المعروفة آنذاك.

وتفاوت الشعراء في نظم الشعر التعليمي، فبعضهم حافظ على شيء من السمة الشعرية، وأبقى على بعض اللمحات الشعرية، وخاصة في المقدمات، وبعضهم الآخر أحاله إلى نظم خالص، ليس له من الشعر إلا الشكل الخارجي.

وكان للشعر التعليمي فوائده وأضراره، فمن فوائده: نشر العلوم، وتسهيل حفظها، ومن مضاره: التباسه بالشعر، واحتسابه عليه، وهذا أساء لمفهوم الشعر، ولصورة الشعر العربي.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة دمشق

تمهيد:

نمت الثقافة العربية في العصر العباسي، ونشطت الحركة الثقافية بتأثير عوامل مختلفة، منها:

أ ــ الاحتكاك بالحضارات والثقافات الأجنبية المختلفة، وهذا الاحتكاك تأرجح بين المدِّ والجزر، إلا أن آثاره بدت واضحة للعيان، وانعكس ذلك على الحياة بمجملها بصفة عامة، وعلى الأدب بصفة خاصة.

ب ــ انتشار حركة الترجمة والنسخ؛ التي نقلت علوم الأمم الأخرى وآدابها، وأذاعتها في الناس؛ مما سبب إيجاد نهضة معرفية، وحركة علمية، استفادت من الفلسفة وغيرها.

ج ــ ظهور نزعة الاعتزال، التي مجدت العقل، ورفدت التفكير، وساندت علم الكلام، مما نوَّع مجاري الفكر، وصَبَغ العلوم بصبغة فلسفية تقوم على التعليل، والتحليل، والاستدلال، والمنطق، وهذا الأمر ساعد على نزوع الشعر نزعة جديدة، بحيث يكون موجَّهاً لأغراض معينة، ومحققاً لأهداف تعليمية، فكانت طائفة من الشعراء تنظم القصائد بغية إنماء الفكر العربي، ودفْعه إلى وطء أرض بكر، وارتياد عوالم مستحدثة، بقصد تقديم العلوم بطريقة محبَّبة إلى نفس المتعلّم، وتلك الطريقة تتسم بالسهولة، واليسر. والأدب فرع مهم من فروع الحضارة، يتأثر بقيمها المختلفة، وأساليبها المتنوعة، ويتمثَّل ثقافاتها المختلفة، وتمازجها المترامي الأبعاد، فنجد الشاعر يصور النشاط العقلي، والنزعة الفنية، ويحرص على التجديد والتطوير كلما سنحت له الفرصة، وكان الجو مواتياً له.

كما أن الشاعر ابن عصره، ووليد مجتمعه، والمتأثر بظروفه، فلم يقتصر الشاعر العباسي على نظم الشعر من خلال الانفعال العاطفي، ودفْق المشاعر، بل وظَّف شعره، ووسَمَه بسماتٍ عقلية، وصبَغه بتصوير فكري خلاق، مخترقاً ميادين

جديدة، وحقولاً عصرية، تهب الشعر انطلاقة تأملية، وتضفي على الشاعر قدرة فنية متميزة، واستطاعة تعبيرية متألقة، تجمع بين القديم الموروث والجديد المحدَث، فيكون الوليد على خير ما يراه تأثراً وتأثيراً.

وكان الشعر يؤدي رسالةً جديدة للشاعر في العصر العباسي، ويؤكّد تمكُّنه من الاستفادة من كل ما حوله.

وظهرت في الشعر العربي منذ بداية العصر العباسي ظواهر جديدة، بعضها غريبة عنه، اتخذت شكله، والتبست به، وأهمها المنظومات التعليمية في مختلف ألوان المعرفة، وقد عدها بعض الباحثين فناً شعرياً مستحدثاً، ورآها آخرون انحرافاً في مسيرة الشعر العربي، ومأخذاً عليه.

واتخذت المنظومات التعليمية، وما أُطلق عليه اسم الشعر التعليمي، الشكل الخارجي للشعر وزناً وقافية، وكانت في معظمها من المزدوجات، التي جعلها بعض الأدباء والعلماء وسيلة تعليمية، غايتها تقرير العلوم وتثبيتها، وتسهيل حفظ المتون العلمية على طلبة العلم؛ لأن النظم أعلق بالذهن من النثر، وأسهل حفظاً.

ولا بد من التنبيه على أن المنظومات العلمية تخالف المفهوم الحقيقي للشعر، هذا الفن الجميل الذي يحمل الأفكار والمشاعر بأسلوب ممتع ممتزج بالخيال والموسيقا، ولكنها تلتقي مع المفهوم التقليدي القاصر؛ الذي يذهب إلى أن الشعر «كلام موزون مقفّى دال على المعنى»[1].

ويحمل إطلاق اسم الشعر التعليمي على هذه المنظومات مغالطة في ذاته؛ لأنه يجمع بين خطابين مختلفين، وغايتين متباينتين. الخطاب الأول: الشعر، وهو فن جميل يعتمد على الموسيقا والخيال والألفاظ المتخيرة الموحية ذات الدلالات المفتوحة،

(1) العمدة لابن رشيق (245/1).

وغايته المتعة. والخطاب الثاني: التعليم، وهو ذكر معلومات من علم معين، يعتمد على الدليل والبرهان والحجة، ويعبر عنه بلغة واضحة محددة مقيدة الدلالة، وغايته إيصال المعلومات إلى الناس وإفادتهم. ذاك يخاطب الوجدان ويستثير المشاعر، وهذا يخاطب العقل للإقناع.

بدايات الشعر التعليمي:

أشار مؤرخو الأدب العربي والباحثون في الأدب العباسي إلى هذه الظاهرة، واختلفوا في أصلها وطبيعتها، فأرجعها بعضهم إلى أصول أعجمية، وأرجعها بعضهم الآخر إلى أصول عربية، وجعلها فريق منهم من الفنون الشعرية، وأخرجها فريق آخر من دائرة الشعر، فربطها أحمد أمين بتأثير الثقافة الهندية[1]، وربطها يوهان فك بتأثير الثقافة الفارسية[2]، وعاد بها طه حسين إلى الثقافة اليونانية[3].

في حين رأى شوقي ضيف أن هذه الظاهرة لها أصولها في الثقافة العربية، تتمثل في الأراجيز المثقلة بالغريب والأساليب الشاذة؛ التي نظمها أصحابها من أجل أهل اللغة[4].

وشكك هدارة في انتماء المنظومات التعليمية إلى الشعر، وقال عن الشعر التعليمي: «ليس له من الشعر إلا اسمه»[5].

وقد أورد الفزاري في مزدوجته ما يعرفه من علم النجوم ليفيد منه الناس، وليتفكروا في عظمة خلق الله تعالى، فخلط بين الهدف العلمي والهدف الديني، وهذا

(1) ضحى الإسلام؛ لأحمد أمين (258/1).
(2) العربية؛ ليوهان فك ص (105).
(3) حديث الأربعاء؛ لطه حسين (221/2).
(4) التطور والتجديد في الشعر الأموي؛ لشوقي ضيف ص (345).
(5) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري؛ لمصطفى هدارة ص (367).

أمر متوقع في ذلك الوقت؛ لأن الاشتغال بالعلوم الصرفة لم يكن قد تمّ بعد، ولذلك احتفظ بشيء من مسحة التعبير الشعري في أرجوزته؛ التي يقول في أولها:

الحمـــــد لله العلـــــيِّ الأعظـــــمِ ذي الفضل والمجدِ الكبيـــر الأكـــرمِ

الواحـــدِ الفـــردِ الجـــوادِ المـــنعمِ

الخـــالقِ الـــسَّبْعِ العُلـــى طِباقـــا والشمسِ يجلو ضـــوءُها الإغـــساقا

والبـــدرِ يمـــلأ نـــورُه الآفاقـــا[1]

ولكن معاصره عالم اللغة والنحو علي بن حمزة الكسائي (ت 189هـ) افتتح مسيرة النظم في النحو بقصيدة أوضح فيها أهمية علم النحو، وقال فيها[2]:

إنمـــا النحـــو قيـــاس يُتَّبَـــع وبـــه فـــي كـــل أمـــر ينتفـــع
فـــإذا مـــا أبـــصر النحـــو فتـــى مـــرّ فـــي المنطـــق مـــرّاً فاتّـــسع
وإذا لـــم يُبـــصر النحـــو فتـــى هـــاب أن ينطـــق جُبنـــاً فـــانقطع
فتـــراه ينـــصب الرفـــع ومـــا كان من خفض ومن نـــصب رفـــع
يقـــرأ القـــرآن لا يعـــرف مـــا حـــرّف الإعـــراب فيـــه وصـــنع

لا توجد في أبيات الكسائي شاعرية، لكنه لم يصل إلى مرحلة النظم؛ لأنه في مرحلة الريادة، فعبر عن مراده بمباشرة ووضوح، فهو لا ينظم مسائل النحو وقواعده, وإنما يتحدث عن علم النحو وفوائده، وبذلك فتح باباً لعلماء النحو من بعده لينظموا أبوابه ومسائله في أراجيز اشتهرت بعد ذلك مثل «ملحة الإعراب» للحريري.

(1) معجم الأدباء؛ لياقوت الحموي (118/17 ــ 119).
(2) تاريخ بغداد؛ للخطيب البغدادي (412/11).

ثم جاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي (ت 200هـ) فنظم في أكثر من فرع من فروع المعرفة؛ كالتاريخ، والفقه، والقصص، مثل:

- سيرة أردشير وأنوشروان.
- الأحكام المتعلقة بالصوم والزكاة.
- قصيدة في الخَلْق.
- نَظْم (كليلة ودمنة) في أربعة عشر ألف بيت.

وهذه المؤلَّفات توحي باتجاه الشاعر نحو الأسلوب التعليمي لمختلف صنوف الآداب والعلوم، والهدف الأسمى من وراء ذلك هو: تسهيل حفظ المتون، ودراستها من قِبل طلاب العلم، وشُداة المعرفة.

وأهم عملٍ قام به أبان اللاحقي هو نظمه لكتاب (كليلة ودمنة). يقول ابنُ المعتز عن هذا الشاعر: إنه «هو الذي نقل كتاب (كليلة ودمنة) شعراً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة، وهي هذه المزدوجة التي في أيدي الناس... وهي قريبة من خمسة آلاف بيت»[1].

ولكن هناك رواية تجعل منظومة أبان في أربعة عشر ألف بيت[2].

وسواء أكان الخبر الأول صحيحاً أم الثاني، فإن كل ما بقي من هذه المنظومة لا يتعدى السبعين بيتاً، ومنها:

هـــــذا كتــــــابُ أدبٍ ومحنــــــهْ	وهو الــذي يُــدعى كليلــة ودمنـــهْ
فيــــه خيــــالاتٌ وفيــــه رشــــدُ	وهـــو كتـــابٌ وضـــعته الهنـــدُ
فوصــــــفوا آدابَ كــــلّ عــــالم	حكايـــــةً عـــن ألـــسنِ البهـــائم

(1) طبقات الشعراء، لابن المعتز ص (241).
(2) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (44/7).

وهـــو علـــى ذاك يـــسيرُ الحفـــظِ لـــذَّ علـــى اللـــسانِ عنـــد اللفـــظِ[1]

وفي باب (الأسد والثور) يقول:

وإنَّ مَـــنْ كـــان دنـــيَّ الـــنفسِ يرضـــى مـــن الأرفـــعِ بـــالأخسِّ
كمثـــل الكلـــب الـــشقي البـــائس يفـــرح بـــالعظم العتيـــق اليـــابس
وإنَّ أهـــلَ الفـــضلِ لا يرضـــيهم شـــــيءٌ إذا كـــــان لا يغنـــــيهمْ
كالأســـدِ الـــذي يـــصيدُ الأرنبـــا ثم يـــرى العيـــر المجـــد هربـــا[2]

ولا ندري هل كان أبان قد نظم ترجمة ابن المقفع، أو أنه ترجمه شعراً من الأصل الفارسي، وهذا ما يوحي به كلام ابن المعتز، ولكن ابن المقفع أذاع هذا الكتاب، فنظمه أبان شعراً، ليسهل حفظه، ويزداد انتشاره بين الناس «لما فيه من تثقيف للعقول، وتهذيب للنفوس، وشحذ للأذهان، في خيالات حيوانية مسلية، تنبض بالحياة، والحركة، والنشاط. ولئن كان لأبان فضل فهو السبق إلى هذا النوع من الشعر التعليمي في الأدب العربي»[3].

ونلتقي بعد أبان ببشر بن المعتمر (ت 210هـ) فإن «أكثر شعره مزدوج، ينقل الكتب المنثورة في الكلام والفقه وغير ذلك إلى الشعر»[4]. وله قصيدتان ذكرهما الجاحظ في كتابه (الحيوان) في أثناء كلامه عن الحشرات وأصناف الحيوان والوحوش، ومهَّد لهما بقوله: «إنَّ له ــ أي: بشر بن المعتمر ــ في هذا الباب قصيدتين، قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبَّه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة، والموعظة البليغة. وقد كان يمكننا أن نذكر من شأن هذه السباع

(1) الأوراق (قسم أخبار الشعراء)، للصولي ص (46).
(2) المصدر السابق ص (47).
(3) كليلة ودمنة في الأدب العربي، لليلى سعد الدين ص (292).
(4) الفهرست، للنديم ص (205).

والحشرات بقدر ما تتسع له الرواية، من غير أن نكتبهما في هذا الكتاب، ولكنهما يجمعان أموراً كثيرة، أما أول ذلك فإنَّ حِفْظ الشعر أهونُ على النفس، وإذا حُفِظ كان أعلقَ وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضَرْب المثل كان مثلاً»[1].

وتبلغ القصيدة الأولى ستين بيتاً، وأولهما:

النـاسُ دأبـاً فـي طِـلاب الغنـى ... وكلُّهـم مـن شـأنه الخَتْـرُ[2]
كـأذْؤُبٍ تَنْهَـشُها أَذْؤُبٌ ... لهـا عُـواءٌ ولهـا زَفْـرُ
تـراهُمُ فوضـى وأيـدي سَـبَا ... كـلٌّ لـه فـي نَفْثِـه سِـحْرُ[3]

ثم أخذ بشر بن المعتمر يتحدث بالتفصيل عن الحشرات والوحوش، ويذكر حياة كلّ منها، وأنماط سلوكه، ويُبيِّن الحكمة من وجوده، وغير ذلك، فكان قوله أشبه ما يكون بوسائل الإيضاح، ليعي الطلاب الدروس، فيكون الرسمُ بالكلمات مضاهياً للصورة الحقيقية لهذا المخلوق أو ذاك. يقول:

جـرادةٌ تَخْـرقُ مَـتْنَ الـصَّفا ... وأَبْغَـثٌ يـصطادُه صَـقْرُ
سـلاحُه رمـحٌ فمـا عُـذْرُه ... وقـد عـراهُ دُونَـهُ الـذُّعْرُ

لقد تنبه الجاحظ على الغاية التعليمية لهذا النظم وصرح به، وهي ليست الغاية المعروفة للشعر، ويلاحظ أن ابن المعتمر لم يخلص نظمه للغاية العلمية المحضة، ولم تتحول منظومتاه إلى سرد علمي خالص لطبائع الحيوان وطرائق عيشه، بل أراد من ذكر الحيوانات المختلفة وسماتها استخلاص الموعظة، والدعوة إلى التأمل في مخلوقات الله؛ ليفيد منها الإنسان في عقيدته، وسلوكه.

(1) الحيوان، للجاحظ (284/6).
(2) الختر: الغدر.
(3) نفثه: النفث: أشبه بالنفخ.

استمرار الشعر التعليمي:

إن التقاء الثقافة العربية بالثقافات الأخرى في العصر العباسي قد زاد نصيب الفكر في الشعر عما كان عليه من قبل على حساب نصيب الشاعرية فيه، وقد وازن الشعراء الكبار بين المكونات الفكرية الوافدة وبين المكونات الفنية لشعرهم، فظل مقبولاً سائغاً عند الناس، وهذا كان شأن أبي العتاهية (ت 211هـ) قبل أن يستغرق في زهده متأثراً بأفكار غريبة عن الثقافة العربية الإسلامية، فتحول شعره إلى نظم، يدعو فيه الناس إلى نهج اجتماعي جديد، ولا يريد إشباع حاجتهم الجمالية. ومن ذلك أرجوزته ذات الأمثال التي تحدث عنها أبو الفرج الأصبهاني فقال: «هذه الأرجوزة من بدائع أبي العتاهية. ويقال: إنَّ له فيها أربعة آلاف مثل». ثم ذكر قسماً منها، وقال: «وهي طويلة جداً، وإنما ذكرتُ هذا القدرَ منها حسب ما استاق الكلام من صفتها»[1].

وفي ديوان أبي العتاهية ثلاثمئة وعشرون بيتاً من هذه الأرجوزة[2]، وأقتطف منها قوله:

حَسْبُكَ مما تبتغيه القوتُ ... ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ
إن كان لا يغنيك ما يكفيكا ... فكلُّ ما في الأرض لا يغنيكا
لن تُصلحَ الناسَ وأنت فاسدُ ... هيهاتَ ما أبعد ما تُكابِدُ
لكلّ ما يؤذي وإنْ قَلَّ أَلَمْ ... ما أطولَ الليلَ على مَنْ لم يَنَمْ[3]

وهي أرجوزة تتميز بسهولة اللفظ، وحلاوة الإيقاع، ووضوح المعاني، والانسياب في التعبير، لأن أبا العتاهية شاعر موهوب، استطاع أن يطبع نظمه بطابع

(1) الأغاني (4/36 ــ 37).
(2) أبو العتاهية أشعاره وأخباره (444 ــ 465).
(3) المصدر السابق ص (446).

الشعر، في حين لو أن عالماً لا يمتلك موهبة أبي العتاهية وتجربته الشعرية نظم هذه المزدوجة لجاءت جافة خالية من أي لمحة شعرية.

ويشتد النظم في التاريخ، فتظهر قصائد ومنظومات على جانب كبير من الأهمية، أبرزها (المحبرة في التاريخ) لعلي بن الجهم (ت 249هـ)، وهي مزدوجة تجاوزت ثلاثمئة بيت، جعلها في جزءين، تناول في الأول بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، وتناول في الثاني تاريخ الإسلام والخلفاء إلى أيامه، وقد استهلها بعد الحمد والصلاة بقوله[1]:

يـا سـائلي عـن ابتـداء الخلـق ... مـسألة القاصـد قـصد الحـق
أخبرنـي قـوم مـن الثقـات ... أولـو علـوم وأولـو هيئـات
تقـدّموا فـي طلـب الآثـار ... وعرفـوا حقـائق الأخبـار
وفهمـوا التـوراة والإنجـيلا ... وأحكمـوا التنزيـل والتـأويلا
أن الـذي يفعـل مـا يـشاء ... ومَـن لـه العـزة والبقـاء
أنـشأ خلـق آدم إنـشاء ... وقـدَّ منـه زوجـه حـواء

في هذه المقدمة أظهر أنه نظم أرجوزته إجابة لسؤال سائل، ولم يدع العلم، فأسندها إلى علماء ثقات، وهذه طريقة العلماء، فالاهتمام بالسند ليس من عمل الشعراء، وهذا يشير إلى أنه هنا ترك الشعر إلى النظم ليثبت على طريقته شيئاً من التاريخ، وليساعد شُداته على استظهاره وحفظه، وعندما شرع يسردُ الحوادث ارتبك، ولم يسر على سجيته؛ لأن النظم لا يتيح للناظم الاسترسال، ولأنه ملزم بالحقائق، والوضوح، والابتعاد عن الخيال، والتعبير غير المباشر.

(1) ديوان علي بن الجهم ص (228).

وجاء ابن المعتز (ت 296هـ)، فنظم قصيدة تاريخية تُعدُّ من كُبريات القصائد في الشعر العربي، إذ تبلغ (414) بيتاً، وقد نظمها على بحر الرجز، الذي يستقلُّ فيه كلا مصراعيه بقافية واحدة[1].

وهذه القصيدة ذات أهمية خاصة، لأنها مستند تاريخي يُسجِّل أسماء من توارثوا عرشَ الخلافة، وأعمالهم الإيجابية والسلبية، وما جرى في عهودهم من أحداث ووقائع، وأثَر ذلك في الرعية. والقصيدة في سيرة الإمام أبي العباس المعتضد، وإلى ذلك يشير ابنُ المعتز بقوله:

هـذا كتـابُ سِـيَرِ الإمـامِ مُهـذَّباً مـن جـوهرِ الكـلامِ
أعني أبـا العبـاسِ خيـرَ الخَلْـقِ لِلْمِلْـكِ قـولُ عـالمٍ بـالحقّ
قـام بـأمر المُلْـكِ لمـا ضـاعا وكان نَهْبـاً فـي الـورى مُـشاعا
مُـذلَّلاً ليـستْ لـه مَهابـهْ يخـافُ إن طنَّـتْ بـه ذُبابـه
وكُـلَّ يـومٍ مَلِـكٌ مقتـولُ أو خـائفٌ مُـروَّعٌ ذليـلُ
وكُـلَّ يـومٍ شَـغْبٌ ونَهْـبُ وأنفـسٌ مقتولـةٌ وحَـرْبُ[2]

وتشتمل هذه القصيدة على وصف مباشر للنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية في القرن الثالث الهجري، فَنَعتَ الشاعرُ الشدائد التي تعرَّض لها الناسُ آنذاك، وذكر الفتن والمآسي، مما يشهد له بالتمكن والمقدرة الفائقة على الملاءمة بين إيراد الأحداث التاريخية والنظم الشعري البارع؛ لأنه شاعر صاحب موهبة وتجربة، وكان شاهداً للأحداث التي يرويها، فبدأ متحمساً متأثراً، وهذا التأثر والحماس أظهر الشاعرية في المنظومة، وخاصة عند الإشادة أو الذم، وهي من الموضوعات الشعرية التي أجادها الشاعر، وأحسن تضمينها في تاريخه المنظوم، ومع ذلك يصعب إدراج

(1) الشعر في العصر العباسي، للدكتور علي عطوي ص (78).
(2) شعر ابن المعتز (520/1 ــ 521).

المنظومة ضمن الشعر لأن غايتها علمية وإن أبت شاعريته أن تتوارى. ومثل هذه المنظومة تُدخل اللبس على المصنف، فيحار في تصنيفها، لأنها نظم علمي يحمل بعض سمات الشعر، وهذا كان شأن الرواد في النظم التعليمي، يؤكده ابن دريد اللغوي الشاعر (ت 321هـ) في مقصورته المشهورة التي مدح بها محمد بن ميكال والي الأهواز، وضمنها ثلث الألفاظ المقصورة في اللغة العربية، وقال فيها[1]:

إمّـا تـري رأسـي حـاكى لونـه ... طُرّة صُـبح تحـت أذيـال الـدُّجى
واشـتعل المبـيضّ فـي مـسوّده ... مثل اشتعال النار في جـزل الغـضى
وغاض مـاءَ شِـرّتي دهـرٌ رمـى ... خـواطر القلـب بتبـريح الجـوى
وآض روض اللهـو يَبْـساً ذاويـاً ... من بعد ما قد كـان مجّـاج الثـرى

كان هاجس ابن دريد أن يوصل للناس معلومات لغوية، ومنها الألفاظ المقصورة، ودفعته الحاجة أو الامتنان إلى مدح ابن ميكال، فأخرج الرغبتين في قصيدة واحدة، استغرقت مئتين وثلاثة وخمسين بيتاً، افتتحها بالغزل، واشتكى الدهر، وذكر من أُصيب قبله وثبت، ثم وصف الصحراء وحيواناتها قبل أن يشرع في المدح.

ووصل النظم إلى الطب والفلسفة؛ لأن العلماء وجدوا فائدة نظم العلوم وتأثيره في انتشارها، مثل العالم ابن سينا (ت 428هـ) صاحب القصيدة المشهورة في النفس، التي قال فيها[2]:

هبطت إليك مـن المحـل الأرفـعِ ... ورقـاءُ ذات تعـزز وتمنُّـعِ
محجوبة عـن كـل مقلـة عـارف ... وهي التـي سـفرت ولـم تتبرقـعِ
وصلتْ علـى كـره إليـك وربمـا ... كرهت فراقـك وهـي ذات تفجـعِ

(1) شرح مقصورة ابن دريد، ص (3).
(2) عيون الأنباء، لابن أبي أصيبعة ص (446).

وضع ابن سينا قصيدته في مستويين، مستوى ظاهر يشير إلى المستوى المستور، متبعاً طريقة رمزية في التعبير ساعدته في الحفاظ على الأسلوب الشعري في المعالجة، لكنه أثقله بمصطلحات الفلسفة وعباراتها، فاقتربت من النظم. وهذا احتيال لطيف من ابن سينا؛ الذي أراد لأفكاره حول النفس الانتشار، فلم يجد وسيلة أفضل من وضعها على شكل الشعر.

ومما تقدَّم يلحظ الباحثُ أن الشاعر العباسي استطاع أن يتعامل مع المعارف الحديثة الطارئة على المجتمع، وأن يتأقلم معها، ويصول ويجول في ميادين جديدة من المعرفة الثرة، فكان الشعر التعليمي من أهم الظواهر المستجدة في أدب العصر.

سمات الشعر التعليمي:

ثمة سمات كثيرة يتصف بها الشعر التعليمي في العصر العباسي، وتضفي عليه مسحة خاصة من العلامات المميزة في عالم الحضور الشعري. ومن تلك السمات:

أ ــ البعد عن الانفعال الشعوري، والعناية بالخطاب العقلي:

وهذه السمة نتيجة طبيعية للطوابع العقلية في العصر العباسي، حيث رقيت الحياةُ الفكرية رقياً لا حدود له، وانتشرت المحاورات والمناظرات هنا وهناك، مما دفع الشعراء إلى التفكير والتأمل.

وكان اندفاعُ الشعراء للتزود من ألوان المعرفة كلها يُعبِّر عن لذَّتهم العقلية، وتحويل تلك المعارف غذاءً شعرياً لا مثيل له، إلى جانب انفتاح أبواب الفكر الفلسفي من خلال الثقافة اليونانية، إلى جانب أبواب المنطق، ومقاييسه.

والشعر التعليمي في ذاته يتطلب مهارة عقلية، وشحذاً للذهن، واستكشافاً لدقائق المعاني، ونظمها في الأبيات الشعرية، ليقرأها الطلاب، ويستظهروها. وكل هذا دفع

بشر بن المعتمر للتحدث عن مكانة العقل، وأهميته، وقدرته على الإتيان بالأدلة والبراهين الساطعة، والحجج القاطعة، يقول:

للهِ درُّ العقـــل مـــن رائـــدٍ وصـــاحبٍ فـــي العُـــسْر واليُـــسْرِ
وحـــاكمٍ يقـــضي علـــى غائـــبٍ قـــضيَّة الـــشاهد للأمـــرِ(1)

فقد أصبح العقل في العصر العباسي قادراً ــ وبشكل منقطع النظير ــ على التعليل والتحليل، وتأدية المعاني المبتكرة، والصور البديعة، من خلال طابعٍ عقلي محض، واستدلال دقيق، وتوليد المعاني، وتفريع الأفكار.

ويتصف الشعر التعليمي بكونه موجَّهاً لطلاب العلم، وذوي الثقافة المتوسطة، فهو يُحاط بسياجٍ عقلي، وحِمى من التفكير المجرد، ولاسيما أن النظم ــ إلى حدّ ما ــ بعيدٌ عن العاطفة، وقصيٌّ عن الأحاسيس.

ومَنْ يقرأ ذلك الشعر فإنه لا ينفعل من خلاله، بل تُثار عنده القدرات العقلية، وملكات التفكير، وقوانين التعليل، ومن ثمّ تسيطر الطوابع العقلية على هذا النوع من الشعر.

وأين العاطفة أو المشاعر في نَظْم شعري يدور حول المسائل الفقهية، كالصوم، والزكاة، أو يتحدث عن مبدأ الخَلْق، وقصص كليلة ودمنة، وتاريخ الملوك، وغير ذلك؟!

ب ــ تكثيف العبارة:

عندما نتحدث عن الشعر التعليمي يعني أن هناك ــ بالضرورة ــ توجُّهاً للحفظ بالدرجة الأولى، فالأمر لا يستدعي التطويل في العبارة، أو الإسهاب في التعبير عن الأفكار، بل على العكس من ذلك: كلما قلَّت الكلمات، وتكثفت العبارات، كان حِفْظُها أكثر سهولة، وأيسر على طلاب العلم.

(1) العقد الفريد (527/4).

ومن هذا المرتكز طفق شعراءُ هذا اللون التعبيري في نظم أراجيزهم وقصائدهم، بحيث يجدها الطلاب سهلةً ميسورة.

ثم إن القصص، والتاريخ، والأمور العلمية، ومسائل الدين، كلُّ ذلك يتطلب إسهاباً، لكن الشعراء وجدوا أنهم يُوجِّهون أشعارهم، ويقصدون إليها قصداً، بهدف الحفظ، مما يقتضي أن يوجزوا في الكلام، وينأوا عن الحشو والزيادة.

وكل القصائد التي مرت بنا في هذا البحث، تنطبق عليها سمةُ (تكثيف العبارة)، فلا نجد زيادةً ولا هلهلةً، بل يبدو التركيز على أشدّه، وينضفر الاستظهار العقلي مع سهولة العبارة، وتكثيفها.

ج ــ الشكل الشعري:

جاءت المنظومات التعليمية أو الشعر التعليمي في أشكال شعرية محدودة، أولها القصيدة التي نعرفها بأبحرها المختلفة وقوافيها، وثانيها الأرجوزة في شكلها المعروف من اتحاد القافية في أشطرها كلها، وفي شكل المزدوجات التي تتصف باختلاف القافية بعد كل شطرين، وتميز في الشكل مقصورة ابن دريد، فالنظم لم يتح لأصحابه التنويع الكبير في شكل المنظومة وبنائها.

د ــ تنوع الموضوعات:

لم يقف الشعراء ــ الذين نظموا الشعر التعليمي ــ عند موضوع واحد بعينه، بل انساقوا وراء موضوعات كثيرة، فنظموا في التاريخ، والفقه، والقصص، والفِرَق، والنجوم، وغير ذلك، مما يدلُّ على رحابة فكر أولئك الشعراء، ومحاولتهم التعبير عن شتى الموضوعات، ومختلف ألوان الثقافة.

هذا، وكان الهدف من الشعر التعليمي هو: تقديم العلوم بشكل منظومات، يحفظها طلابُ العلم بيسرٍ وسهولة. وقد آتى ذلك ثماره اليانعة، وقطافه الجنيَّة، على كرِّ العصور، ومرِّ الأيام والعشيّ.

المصادر والمراجع

1 ــ اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، للدكتور مصطفى هدارة، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1969م.

2 ــ أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965م.

3 ــ الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتب، دون تاريخ.

4 ــ الأوراق (قسم أخبار الشعراء)، للصولي، طبعة الصاوي، 1934م.

5 ــ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، مطبعة السعادة، مصر، 1931م.

6 ــ التطور والتجديد في الشعر الأموي، للدكتور شوقي ضيف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1952م.

7 ــ حديث الأربعاء، للدكتور طه حسين، دار المعارف، القاهرة، 1958م.

8 ــ الحيوان، للجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط 3، 1969م.

9 ــ ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، لجنة التراث العربي، بيروت، ط 2، دون تاريخ.

10 ــ شرح مقصورة ابن دريد، للتبريزي، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 1، 1961م.

11 ــ شعر ابن المعتز، دراسة وتحقيق الدكتور يونس السامرائي، وزارة الإعلام، العراق، 1977م.

12 ــ الشعر في العصر العباسي، للدكتور علي عطوي، مؤسسة عز الدين، بيروت، 1993م.

13 ــ ضحى الإسلام، لأحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1949م.

14 ــ طبقات الشعراء، لابن المعتز، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ط 4، 1977م.

15 ــ العربية، ليوهان فك، ترجمة الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980م.

16 ــ العقد الفريد، لابن عبد ربه، تحقيق أحمد أمين ورفيقيه، لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، 1962م.

17 ــ العمدة، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد قرقزان، دار المعرفة، بيروت، ط 1، 1988م.

18 ــ عيون الأنباء في طبقات الأدباء، لابن أبي أصيبعة، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

19 ــ الفهرست، للنديم، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1973م.

20 ــ كليلة ودمنة في الأدب العربي، لليلى سعد الدين، مكتبة الرسالة، عمان، دون تاريخ.

21 ــ معجم الأدباء، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2004/12/27.